

الأدب العراقي في العصر المفلول

« بحث أولي مختصر^(١) »

للأدب العراقي العربي في عصوره كلها خصائص باهرة وسمة ظاهرة عرفها الأدباء منذ الأزمان الحالية واعترفت بها الأذواق الأدبية منذ ميزت بين فنون الآداب العربية وضروب المشاعر المحبرة والمأثورة فاستلذتها أئمة استلذاذ والسبب في ذلك أن الأدب بمعناه العام ، على اختلاف أنواعه وتباين ألوانه وتفاوت فنونه إنما هو نتاج الأسباب وثمار النفوس معاً أي نتاج العقل وال عاطفة معاً ومن ثم كان كشمـر الشجر وأجناسه المتنوعة ، وكألوان الزهر بأرجه المتضوعة ، يطيب بطيب الأرومة ويعقب شذاه بمعاذاة الجرثومة .

وإنما تهيأت للأدب العراقي العربي تلكم الخصائص بما رزق العراقيون من الذكاء والذكاء والرقّة والحلاوة والورائة الأدبية النبيلة ، فزكا أدبهم وتفنن وطبع على الجودة والنبالة ، فأصبحنا من سجاياه ومزاياه ، وغبر على هذه الصفة طووال العصور الاسلامية خلا فترات شذ فيها عن سبيله لما اعترضه من غير اندهر ، إلا أن ذلكم الشذوذ كان عارضاً من العوارض فالخصائص الأدبية العراقية بقيت على جوهرها وأقامت على حقايقها كما بقيت السكواكب وراء السحاب في الليلة الخالكة .

إني لم أقل هذه المقالة تعصباً للعراقيين ولا افتياتاً على الأذواق الأدبية ولا مجازفة في الحكم وإنما قلتها بعد أن توفرت الشهادات وتوافرت لكرامة الأدب العراقي العربي واستفاضت على الألسنة وفشت في الكتب وتنقلت وأثرت ولذكريها موضع آخر أشبعها فيه تبياناً واستشهاداً إلا أنني لا أود أن أجوز التنويه بها دون ذكر أبيات لأبي القاسم عبد الواحد بن محمد الطرز الشاعر البندادي من أهل القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة قال :

(١) لنا كتاب مفصل في هذا الموضوع لا يزال خطياً .

عسى طيفُ المَلَمَةِ بالنعم
لعلَّ خيالَ ذاتِ الخالِ يسري
أرقتُ له أُمَاطِلُ فيه هماً
وكيفَ ينأَمُ عِشْقُ تَغَلَّبِي
يَلُمُ بنا على العَهْدِ القديم
فينقَعُ غَلَّةَ النضو السقيم
بلازُمِي مُلازِمَةُ الغريم
تورَقُهُ ظِلْباءُ بني تيم ؟

قال الباخري الخراساني في هذه الأبيات « هذا لعمري هو الشعر الذي ورد دجلة فاربوي بزلالها وزوَّج بشمالها فرقل في سربالها واستفاد الصحة من اعتلالها » (١). ولا شك في أن أثر الصنعة الشعرية ظاهر على الأبيات ولكن الصنعة الأدبية إذا بلغت الذروة أشبهت الأدب المطبوع لأن الغرام بالفن يستمد من المأسكة والطبع معاً ، وقد ثبت أن صدق الشعور وحده لا يكفي في دعوى روعة الأدب ، كما ثبت في الفنون على اختلافها أن التقليد فيها يبلغ أحياناً مرتبة المقلد فلا يمكن التمييز بينهما إلا بشيء غير فني ، وإننا لنجد كثيراً من الرثاء المأجور والرثاء المقترح والغزل المتكلف يفوق الصادق منهما وحسبكم شاهداً على ذلك غزل كمال الدين ابن النبيه في قصيدته « أماناً أيها القمر المثل » و « أفديه إن حفظ الحموى أوضيماً » ورثاؤه الملك المعظم أبي الحسن علي بن الخليفة الناصر لدين الله بأبياته التي يقول فيها :

والموتُ نقادٌ على كفه
أرغمتَ يا موتُ أنوفَ التنا
كيف تحرَّمتَ علياً وما
تجملَ أمير المؤمنين الذي
جواهر يختار منها الجياد
ودُسَّتْ أعناق السيوف الحداد
أنجده كلُّ طويل النجاد ؟
من خوفه يُرعدُ قلبُ الجاد
سنَ بنو العباس لبس السواد
نازلةً حلَّتْ فن أجلا

والأدب العراقي في العصر المغولي وثيق الصلة بالأدب العراقي في العصر العباسي الأخير بحكم الزمان والذاتية ، تصل بينهما برهة خضرة وهي الفترة التي فصلت بين العصرين وفيها درجت طبقة الأدباء الذين نشؤوا في أواخر الدولة العباسية وأدركوا الدولة الأيلخانية التتارية المغولية ، وفيها أيضاً نشأت الطبقة الأولى للأدباء الجدد الماقيين لهم فخرهمو الدولتين

العباسية والایلخانية من الشعراء مثلاً هم في عداد أدباء العصر العباسي ، لأن نشأتهم كانت فيه وصفتهم كانت منه وما طراً عليهم من المؤثرات لا ينفي عنهم أن يكونوا تلامذته على التعيين وخبريجه على التحقيق والتميز .

وكانت للشعراء دولة في الدولة العباسية على عهدھا الأخير فقد كان الخليفة الناصر لدين الله أحدث لهم ديواناً هو « ديوان شعراء الخلافة » أو « ديوان شعراء الديوان » وجعل لهم مقدماً يقوم مقام ملك الشعراء أو أميرهم كما يسميه المصريون ، وأجرى عليهم جريات معلومة وكان عليهم في مقابل ذلك أن ينظموا القصائد في مواسم الدولة وأزمان التهاني وأيام المآتم فكانوا تجار أدب يبيعون أفرحاً وأحزاناً منظمومة ولكنهم في أثناء ذلك يتجاودون ويبتارون ويتقارون فيسمون بالشعر ويجودون صناعته ما استطاعوا التجويد . ولم تكن الدولة تشجع علي الأدب المنظوم بأكثر من هذا إذ لم يكن في استطاعتها أن تفعل أكثر من هذا الاحسان ولا أن تولد الشعور في النفوس لمصلحتها ، فهذا الأدب ، وإن كان مأجوراً ، يمثل صوراً جميلة في البراعة في فنون النظم ويحفز القرائح الى اللہج بالشعر والافتنان فيه . ومن هذا الشعر الذي وصفت أكثر ديوان سبط ابن التعاوين الذي هو روضة غناء من رياض الشعر العراقي بلغ فيه الفن الشعري الصناعي غايته القصوى .

ولما سقطت الدولة العباسية أصبح العراق ضعفاً من أصقاع الدولة الایلخانية الشاسمة الأطراف الواسعة الأقطار ، وقسم أقساماً تصرفية أي إدارية ، ونُصب في كل منها ملك فكثرت الملوك بالعراق وأصبح العامل الكبير في هذه الدولة بنعت بالملك . وحاولت الدولة الایلخانية فصل العراق عن الأقطار العربية الأخرى الخارجة عن حكمها ولا سيما الشام ومصر محاولة شديدة . ولقد حكمت بالقتل على جماعة اتهموا بالمناوأة السياسية .

والدولة الایلخانية دولة حربية جافية بدائية ولا صلة للفتها بالعربية ولم تكن بدائيتها كبداءة الأعراب تعتمد على المقامات الحسان في البيان ، وتستحب الفصاحة والبلاغة ، وتعد الشعر من مظان تنماءها الأدبية والعلمية معاً ، وكنوز فخريها المعنوية ، وإنما كانت ثقافتها في المتابعة

واستعمال السلاح ، وعلمها سياسياً حربياً ، ولم يكن ينفق عندها إلا علم التعرف أي الإدارة ، القائم على السياسة ومنبسط الأمور المالية من جباية واستيفاء وتشمير واستثمار وتعمير واستعمار ومعرفة اللغات كالمغولية والخطائية والفارسية أما الطب وعلم النجوم لاختيار الاوقات فلم تكن عنايتها بهما أكثر من عناية الدولة العباسية بها ^(١) .

وقد أسلم من قآآنها أي سلاطينها أحمد تكدار بن هولكو ومحمود غازان بن أرغون ومن بعده فكان اسلامهم تأييداً للإسلام والعلوم الدينية وترغيباً في طلبها الا أنهم لم يعلموا اللغة العربية ولذلك لم يكن مأمولاً من ملوك هذه الدولة السكبار أعني القآآين ولا من أمرائهم أن يرفعوا اللغة العربية فضلاً عن آدابها رعاية خاصة كما كان الخلفاء يفعلون وانما كانوا يرونها لغة الدين حسب ، على ان العربية كانت طوال عهد الدولة المذكورة لغة الدراسة والتأليف والحديث والخطابة وفروع الأدب الأخرى وخصوصاً الشعر ، وكانت أيضاً لغة الإدارة داخل العراق . وانضمت الى ذلك عوامل أخرى ، أنا ذاكرها ، ورعت مؤرخ الأدب الحنيف عن أن يسمى هذا العصر الأدبي بالعصر المظلم لأن تبدل الدولة والتباين بين اللغتين العربية والمغولية لم يستطيعا وقف التيار الأدبي العربي ولا اخاد القرائح حتى يقال : إن الأدب انتقل من نور الى ظلام . والسياسة اذا استطاعت وقف الأدب للمأجور ، بالاعراض عنه والتماؤن بأصحابه ، فانها لا تستطيع وقف الأدب للموتور ولا اسكات الأدب للتأثر ولا رد نفثات الصدور .

فالأدب العراقي العربي استمر في هذا العصر متمسكاً متشاقلاً وأما الضعف الذي أصابه فلم يكن ممكناً التغاضي منه لما ذكرنا من أن الدولة العباسية نفسها كانت تأخذ بضيمه ولأن الاستعراض أي القتل العام اجتاحت الأدباء كما اجتاحت غيرهم من الناس فقآلوا قلة ظاهرة وسنوضح ذلك في موضع آخر ، على أننا لا ننكر ان ذلك الضعف اشتد بمرور الايام حتى بان سوء أثره في المظاهر الأدبية دون الجوامع . ونود أن نذكر أكثر العوامل التي استدمت حركة الأدب العراقي العربي وهي سبعة ثم تتبعها خصائص هذا الأدب في هذا العصر .

(١) راجع التاريخ الفخري لمؤلفه نبذة حسنة في هذا الأمر « ص ١٢-١٣ » .

١- فالعادل الأول هو أن أكثر رجال التعريف في العصر المنولي أي أكثر المهال كانوا من العراقيين الذين خدموا الدولة العباسية ومن أبنائهم ومن غيرهم من أهل العراق أيضاً. وكان ميلهم الى الأدب العربي طبيعياً ونتيجة لطبيعة أذواقهم ، وكان جماعة منهم يتماطون الأدب وقرضون الشعر كفخر الدين مظفر بن الطراح وقد قتل سنة ٦٩٤ هـ ومن شعره ما قاله وهو مسجون بدار النيابة ببغداد قبل أن يقتل بأيام :

القولُ فيما مضى من عمرنا هدرٌ فدعه واصبر لما يأتي به القدرُ
واسـتـشعر الصبرَ أن نائتك نائبةٌ فالصبرُ أجل ما حلي به البشرُ
ولا ترعك من الأيام متعـةٌ فشيمة الدهر في أبنائه الغيرُ
وانْ أَرِ الآن بعد النطق ذا حصرٍ فسوف يذهب عني الـعي والحـصرُ
وانْ تُصـبـني سـهامُ الخطبِ نافذةٌ فلم تزل أسهمُ الأيام تعتذرُ
وكلُّ حادثةٍ في الدهرِ هيمنةٌ إذا غدا سألنا في شيها المـمرُ
قل للـمـنـاة من الغابـاتِ ويحكمكم طيـبوا فقد قـد الرئـالة الذمـرُ
وقل لبـيـض السيوف المـرهفاتِ لدى الـ... أعمـاد قـريّ فقد أودى به القـدرُ
مضى للظفر ليث الغاب عن كـشـب فليـن أعداءه من بـعـده الظفر (١)

ثم ان الولاة الفرس الذين حكموا في العراق على عهد هذه الدولة كانوا تتقفوا بالثقافة العربية الاسلامية باللغتين العربية والفارسية زيادة على ثقافتهم الفارسية في الأدب خاصة واعتاد كتابهم على مذهب قدمائهم ، ترصيع رسائلهم بنجوامع الكلام العربية ورأوا أكثر شعرائهم يفضلون النظم بالعربية على النظم بالفارسية فكتاب التاريخ الفارسي المسمى بجهان كشا أي فاتح العالم (وهو تاريخ جنكيز خان تأليف صاحب علاء الدين عطا ملك الجويني والي العراق بعد فتح الموصل وقد ولي العراق أكثر من عشرين سنة) مرصع بكثير من الأبيات العربية الرائقة وشعر اليتيمة للشعالي وغيرها ولعلاء الدين نفسه شعر بالعربية وان كان مشكوكاً فيه فن ذلك بيتان يتغزل بهما

(١) الكتاب الذي وسمناه بالموايد الجامعة ص ٤٨٥-٦

(٢) الكتاب الذي وسمناه بالموايد الجامعة ص ٤٨٥-٦

نجارية مغولية كانت تسكن بالطيب شرقي العمارة الخالية اختارها الصفدي لكتابه الأدبي الخافل « الغيث المسجم في شرح لامية العجم » وهما :

أبادية الأعراب عني فأنسي بحاضرة الأتراك نبطت علاقتي
وأهلك يا نجلا العيون فأنسي فُتنت بهذا الناظر المتضايق^(١)

وفي تاريخ وصاف الحضرة الفارسي مجموعة شعرية من أنفس أشعار العرب استشهد بها مؤلفه في مواضع كثيرة والقاضي نظام الدين الاصفهاني من غول شعراء الفرس وقد عاصر الدولتين العباسية والایلخانية استمر على النظام بالعربية بعد سقوط الدولة العباسية وديوان شعره الذي وسمه بديوان المنشآت ناطق بذلك ولا يزال هذا الديوان في عداد الكتب العربية الخطية ولعل عروبة لغته منعت القوم من نشره .

٢ — والعامل الثاني من عوامل استدامة الحركة الأدبية في العصر المغولي بالعراق الوقوف وتسمى اليوم الأوقاف فإن وقوف المسلمين على المساجد والمعاهد الدينية والمدارس والربط أي الخانقاهات والتكيمات ، وعلى الروايات ودور القرآن الكريم بقيت على حالها وعلى شروط واقفيها واستمرت الموقوفات الدينية على طرائقها ، في حماية تعلم الدين والفنون اللسانية ورعاية الفقهاء والمدرسين والتصوفة والأدباء ، ومن هؤلاء (أعني الأدباء) من كانوا يقيمون في المدارس والمساجد ويعلمون الأدب والشعر فيها ، وقد زاد في هذا العصر عدد المدارس ودور القرآن العزيز والربط والروايات فضلاً عن المساجد إلا أن الجديدة لم تكن نغمة كالتي بنيت في عصور الدولة العباسية إلا المدرسة الغازانية والمدرسة المرجائية .

ويعود الفضل في حفظ الوقوف على مستحقها وصرفها إلى وجوهها إلى الشيخ نصير الدين الطوسي الحكيم المشهور ولأنبائه أصيل الدين الحسن ونغر الدين أحمد وصدر الدين علي ولكن الأبناء لم يبلغوا نزاهة والدهم على ما قل بعض المؤرخين^(٢) ، على أن مؤرخي العراق أحسنوا الثناء عليهم وقد حاول جماعة من ظلمة الولادة أن يقتطعوا من الوقوف حصة للدولة سماها واضعها منهم « الحصص الديوانية » فساءت حال المدارس والمدرسين وغيرهم ، وهاج طلاب المدرسه

(١) راجع فوات الوقفيات « ج ٢ ص ١٤٦ » .

(٢) الغيث المسجم في شرح لامية العجم .

المنصيرية وماجوا وضربوا مدير أمور الأوقاف . فلما وليها نحر الدين أحمد بن نصير الدين الطوسي سنة « ٦٨٣ » حذفت الحصة الديوانية ^(١) ، فانفجرت الأزمة وزالت الشدة عن الدين ذكرناهم وزال الخطر عن الأدب والثقافة .

٣ — والعامى الثالث ، ويكاد يكون عاماً في كل شعب عربي ، الذوق الشعبي وهو الذي تعاقبت الدهور على تربيته وتهذيبه وأحكم القرآن الكريم واللغة العربية أصله وتضافرت طرائق التأديب والتدريس والتعليم والثقيف على تنميته ، ولذلك لم يكن ميسوراً تحوّل الذوق عما نشأ عليه إلا بعد زمان طويل جداً ، ولقوة هذا الذوق الذي كان حظ الشعر منه أوفر من حظ النثر ، كانت أشعار المناسبات كثيرة التجدد ، فكان الهجاء في بغداد مثلاً يذهب كل مذهب ويقيم الولاية ويقعدهم ، ولقد أثر في الأخبار أن صاحب علاء الدين عطا ملك الجويني المقدم ذكره رتب في العراق نائباً عن نفسه في الحكم اسمه نجم الدين الأصغر فاجتمع ذات يوم جماعة وكان فيهم أديب من أهل الحلة يعرف بابن الدربى وجرى بينهم حديث نجم الدين بن الدرنوش (الذي كان عامياً أميناً في أيام المعتصم بالله العباسي ، ولغفلته ذلك الخليفة وتضييعه الحزم مكّنه من الاستيلاء على أمور الدولة حتى صار الوزير يرجوه ويخشاه) وحديث نجم الدين الأصغر نائب علاء الدين هذا وهما نجهان فقال ابن الدربى الخلي فيها :

نجهان كل منها في بلدة لا ناصح فيها ولا مأمون
وكلاهما ساس العراق فذاك قد كان الخراب به وذا سيكون
إن كان تأثير الكواكب هكذا « هذا جنون والجنون فنون »

فلما بلغت الأبيات علاء الدين الجويني أرمضته وأمضته فأمر بطلب الجماعة ^(٢) وجرت من جراء ذلك اعتقالات شنيعة ، ولم يهدأ له بال حتى احتال لتسفيه الهجاء بأن جعل قولهم « الجنون فنون » موضوعاً شعرياً دعا الشعراء الى النظم فيه فأجابوه الى ذلك ^(٣) .

ويدخل في هذا الباب كثير من الشعر الذي تمنعنا خشية التحويل من ذكره وتقصيه وإنما

(١) الحوادث « ص ٤٤٢ - ٣ » وتلخيص معجم الألقاب « ج ٤ : ص ٢٢٤ » من نسختي المطبوعة الأولى .

(٢) الحوادث « ص ٤٢٣ » . (٣) تلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ٢٥٩ » ص ٢٧٢ .

نذكر منه ما قاله زين الدين أبو عبد الله الحسين بن الحسن الموملي المعروف بابن الدهان في سرعة موت من يتقصد قضاء الجانب الغربي من بغداد . وتحرير ذلك أن القاضي صدر الدين محمد ابن شيخ الاسلام الهروي أعيد سنة « ٦٧٧ » إلى القضاء بذلك الجانب والتدريس بالمدرسة البشيرية هناك فبقي على ذلك شهرين وأصبح ميتاً ، فقال زين الدين بن الدهان :

أظن قاضي القضاء أيده الله . . . به إلى كبر دكوه ينتسب أ

إذ كل قاض يقضي إلى الجانب الغربي . . . بي يقضى وماله سب

يا صاحب الملك يا عطا ملك يا من به الكرمات تكتسب

ول الأعادي اللثام بالجانب الغربي . . . بي فصل القضا وقد نكبوا (١)

وقال نجر الدين محمد بن الأشرف العلوي في هجو عماد الدين عبد الله بن محمد المعروف بابن الخوام الحارثي مدرس المدرسة الغازانية ببغداد وأحد الحكماء من أصحاب الوزير رشيد الدين فضل الله وقد آثم بالزندقة وإنكته جدد إسلامه كما يظهر من الهجاء :

يا حزب إبليس ألا فابشروا إن فتي الخوام قد أسلم

وكان فيما قال من كفره « أن رشيد الدين رب السما »

وقل لي شيخ خبير به ما أسلم الشيخ بل استسما (٢)

٤ — والعامل الرابع هو وجود بني الجويني والمقتدين بهم من صاغيتهم وأصحابهم وكذلك وجود أسر أخرى كبيت نصير الدين الطوسي الذي نوهنا به في فضل الوقوف على الأدب ، والذين اشتهروا بحماية الآداب والعلوم والفنون من بني الجويني علاء الدين عطا ملك وأخوه شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان الممالك الإيلخانية وابنه شرف الدين هارون بن شمس الدين ، قال العلامة شمس الدين الذهبي « كان علاء الدين وأخوه فيها كرم وسؤدد ولقد بالغ بعض الناس وقال : تكثر صاحب الديوان علاء الدين ببغداد حتى كانت أجود من أيام الخليفة ووجد أهل بغداد به راحة ، وكان الرجل الفاضل إذا صنف كتاباً ونسبه إليها تكون جائزته ألف دينار ، وقد صنف شمس الدين معدن بن الصيقل الجزري خمسين مقامة وقدّمها إليه فأعطى

(١) الدار السكينة « ج ٢ ص ٢٩٥ » .

(٢) الخواص ص ٤٠٦ .

ألف دينار^(١)» .

والمقامات التي أشار إليها الذهبي هي المقامات الزينية منها نسخة مخزونة في إحدى خزائن الكتب بسوهاج من الديار المصرية وقد صورتها الادارة الثقافية بالجامعة العربية وحفظتها مع مخطوطاتها . ومنها نسخة ناقصة^(٢) في مكتبة مديرية الآثار . وكانت وفاة مؤلفها سنة « ٧٠١ » وكان تأليفها في العراق وقرئت على مؤلفها بوراق المدسة المستنصرية وتمت قراءتها يوم الثلاثاء سابع عشر من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وستمائة بحضور جمع غزير من الأدباء والمستأدين منهم الأديب الفقيدي عماد الدين أبو العباس محمد بن علي بن جعفر الباتني وقد توفي سنة « ٧٢٠ » وله قصيدة يمدح بها مؤلفها ، منها :

أمولاي شمس الدين يا عالي النَجِيرِ	ويا مَنْ عَلا قِدرًا على هامة النسر
لقد طُلَّتْ أهل العَصْرِ طُرًّا بما حَوَتْ	مقاماتك الفصحى من النَظْمِ والنثر
فلو كان يُغني الأَرْضَ علمٌ عن الحياءِ	لما اِفْتَمَرَتْ أرضٌ الى وابل القطر ^(٣)

ولا نود أن نفيض في ذكر من سمع هذه المقامات إلا أننا نذكر من نقلها الى مصر بالسمع وهو الأديب نجم الدين عبد العزيز بن عبد القادر البغدادي المتوفى بالقاهرة سنة « ٧٤٨ »^(٤) . وقد ذكرها صفي الدين الحلي فإنه يقول في باب حل المنظوم من ديوانه ما هذا نصُّه « مما اقترحه عليَّ الشيخُ فلان حين وقف على بعض مقامات^(٥) أنشأها كالتوأمية المسطورة رسالتها أمام هذه السطور فقال أيدّه الله : إنَّ من أصنع ما أنشأه الشيخ شمس الدين معدّ بن نصر الله الجزري في مقاماته الزينية حلَّ المنظوم الذي في المقامة الثانية وهو أنه عمد الى ثمانية أبيات من الحماسة فجمع حروفها وبسطها رسالة ثم أعادها وجمع أبياتًا على الوزن والروي من غير زيادة حرف

(١) تاريخ الإسلام ، نسخة المتحفة البريطانية ذات الرقم ١٥٤٠ في الورقة ٦ ومنه أو من الوافي بالوفيات للصفدي نقل مؤلف فوات الوفيات « ج ٢ ص ٣٧ » .

(٢) فهرست التهديد للادارة الثقافية ص ٢٩٦ وكشف الظنون « المقامات الزينية » .

(٣) تلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ١٢٣ » .

(٤) الدرر السكينة « ج ٣ ص ٢٩٤ » وتلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ١٠٦ » .

(٥) الصواب حذف « بدش » لأنها لا تضاف الى جمع مكر عند الفصحاء .

ولا نقصان حرف^(١). فهذه اشارة الى النموذج صناعي لفظي من مقامات ابن الصبقل الجزري، وهذه هي الصبغة الغالبة عليها فهي من الآدب ذي الصناعة اللفظية.

وألف كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني شرحاً لنهج البلاغة وسمّاه « مصباح السالكين لنهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين » وذلك لإقراءه أبا منصور محمد بن مظفر الدين علي بن علاء الدين الجويني وذكر في المقدمة أنه اتصل بخدمة علاء الدين وأن علاء الدين اعترف له بأسفه على أنه لم يدرس نهج البلاغة ونسب مؤدبه إلى التفسير لاشغاله - كما يقول المؤرخون - بتأريخ اليميني ومقامات الحريري وسائر مشهور كلام العرب ففي كل ذلك جهد وتكليف وعسر مع خلوه من مطالب أولي المهم العالية، والمقاصد السامية واشتماله على الحكايات المضحكة والأخبار الملهمة بخلاف نهج البلاغة^(٢).

وكذا ذكرنا أن علاء الدين كان يقترح على الشعراء مواضيع في الشعر فكانه كان يريد أن يحكي دور الخلفاء والأمرأ في ذلك، وقد نظم له أحد الشعراء قصيدة كل أسماها مصفرة يقول في أولها « بُريقٌ بالاجير في الفجير » ولم يمكنه نظم بيت واحد في مديحه لأن شأن المديح التعظيم لا التصغير^(٣).

وكان إقبال بني الجويني على الآدب العربي بالعراق حادثاً لا تباعهم وصاغتهم على الاقتداء بهم كما أومأنا اليه وإن كانوا من الفرس، فبنو الجويني انتسبوا إلى الفضل بن الربيع، وكان من اليسير وجدان نسب لمن يود الاتصال بالعرب كما هو الحال في كل زمان، فقد ذكروا أن عز الدين عبد العزيز بن جعفر النيسابوري ملك البصرة في ذلك العهد انتسب إلى مالك الأشتر النخعي وألف له السابعة الشهير في تاريخ العراق جمال الدين أبو الفضل أحمد بن المهنا العلوي الحسيني صاحب مشجرات الأنساب وكتاب « وزراء الزوراء » كتاب « المدايح التريزية في المفايح العزبية »، ولتنجم الدين عبد السلام بن السكبوش البصري الشاعر المجيد مفايح كثيرة فيه ولما مات رثاه بقصيدة تمد من خير المرائي العربية في ذلك العصر، وهي التي يقول في أولها:

(٤) ديوان ألفي الحلي « ص ٤٨٤ » . (٢) كشف الظنون في « نهج البلاغة » .

(٣) ديوان الصفي الحلي « ص ١١٩ » وتاريخ آداب العرب لرافعي « ج ٣ ص ٣٧٣ » .

لم أباكِ حتى بكى لك الكبيرُ والسيفُ يوم الفِراع والقلمُ
من بعد عبد العزيز لا وخذتُ الى رؤسوم الكارم الرُسمُ
الموقدِ النار في الدجى كرمًا بالمدل الرطبِ والشتاشيم^(١)

وكان عبد العزيز التيسابوري هذا ، لمجالسة أهل الفضل له وكثرة معاشرتهم إياه يتنبه على معان حسنة ويحلّ الألفاظ المشكلة أسرع منهم ولم يكن له حظ من علم قادعى ذات يوم بيتين نظمها له عبد السلام بن الكبوش البصري الذي ذكرناه آنفاً ، وأراد مدح علاء الدين الجويني بهما وهما :

عطا ملك عطاؤك ملك مصر وبعض عبيد دولتك العزيزُ
تجازي كلّ ذي ذنبٍ بعفوٍ ومثلك من يجازي أو يجيزُ

فأنشدها بحضرة صاحب علاء الدين وتم الانتحال وخفي الأمر على المدوح^(٢) ، فانتحال هذا الملك الصغير للبيتين واستهدفه للفضيحة يدلان على علو قيمة الشعر في برهنة الخسرة بين الدولتين العباسية والأيلخانية ، ولقد علم أدباء الأقطار العربية الأخرى بهوى بني الجويني في الادب العربي ، فانتجعوا مرابعهم واسترفدوا منافعهم فمنهم نغر الدين أبو نصر أحمد بن أسامة الشاعر الحلبي فانه مدح صاحب شمس الدين الجويني أبا عز الدين بقصيدة نظمها سنة «٦٦٦» « وكان نغر الدين بن أسامة الحلبي هذا شاعراً فاضلاً يكتب خطاً مليحاً وأول تلك القصيدة هو :

لي قوادٌ مدله بهواها وجفونٌ جفتٌ لذيد كراها

ومنها :

صاحب مارأى عقيلة فضل وثناء تباع إلا شراها^(٣)
وشاع اسم علاء الدين الجويني شيوعاً عظيماً حتى ركبوا عليه قسماً من حكايات مائة ليلة وليلة والـف ليلة وليلة وذلك في الجزء الخامس خاصة . ونذكر بعد بني الجويني بني نصير الدين الطوسي فقد كانوا من حماة الأدب والعلم وأرباب الفضل على الأدباء وذوي الاحسان الى العلماء

(١) الحوادث « ص ٣٧٨ » . (٢) الفخري « ص ١٢ » .

(٣) تلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ٢١٨ » .

وعنايتهم بالوقف وتوزيعه بين المدارس وفيها العلماء والأدباء من الأئمة المشهورين .

ومما يذكر في هذا الباب أبيات عفيف الدين أبي محمد ربيع بن محمد الكوفي لما أخرج من دار المدرسة المنيثية الحنفية ببغداد كتب بها إلى أسيل الدين الحسن بن نصير الدين الطوسي وهي :

إنا مدحناك لا من أجل حاجتنا لكن لفصلك إن الفضل ممدوح
وباب حاجتنا إن سده قدر ففندنا لك باب العز مفتوح
ولي إذا نلتها أو لم أنل أمل على فنائك ملقى الرحل مطروح^(١)

وفي أسيل الدين هذا يقول مؤلف « غاية الاختصار في البيوتات المملوكية المحفوظة من النبار » إن تحت التسمية في مقدمة كتابه هذا « أسيل الحق والدين ، نصير الاسلام والمسلمين ، الذي أنشر ميت الفواضل ونشر طي الفضائل - وأقام مراسيم العلوم في عصر كسدت فيه سوقها ، وأنهب متعمدات المحاسن بعد ما عجزت عن حمل أجسامها سوقها ، وذب عن الأحرار في زمان هم فيه أقل من القليل ، وملأ أيديهم من حباثه بأياد واحة الغرة والتحجيل ، وحقن من وجوههم ما دونه إراقة دماهم ، وحرس عليهم وقد شارفوا زوالها بقية دماهم »^(٢) .

ومن أخبار رعايتهم للعلم والأدب ما ذكره أحد مؤرخي الحنابلة في ترجمة نجر الدين أحمد ابن نصير الدين الطوسي قال : « ورد ببغداد صحة الأمير أروق في منتصف شعبان سنة ثلاث وثمانين وستمائة والناس قد قحطوا والأئمة من خير النوقف وخبره قد قنطوا فأجراهم على أحسن القواعد وأدر أخبارهم ووظائفهم وعوتب على ذلك فلم يصنع إلى مقال وشكرت طريقته وقصده الشعراء فأجزل صلاتهم »^(٣) . وقد ذكرنا قبل هذا أنه حذف حصة الدولة من الوقوف أي الأوقاف ووفرها على مستحقيها .

٥ - والعامل الخامس هو حرية الأدباء في برهة الخضرمة بين الدولتين في العصر المملوكي فإن تحرر الملكات الزمومة وإطلاق القرائح المتبددة المكعومة كان من البواعث القوية على الكتابة والظفر في أشياء لم تكن الحالة الاجتماعية ولا الحالة الدينية لتسوغها من قبل ولا لترخصا فيها ،

(١) تلخيص معجم الألقاب ج ٤ ص ٦١ . (٢) غاية الاختصار ص ٩ .

(٣) تلخيص معجم الألقاب ص ٤ ص ٢٢٤ .

وفي الحق أن من القرائح والملكات الأدبية ما يموت في أول نشأته فيكون نخبة للمجتمع لأن الخوف والحياء أحياناً وحب المافية في أصحابها أحياناً أخرى تحول دون ظهورها أو ترميها عن معالجة أمور هي شديدة التوقان إليها ، ومطبوعة عليها ، ومن الشعراء الذين ظهر أثر الحرية في شعرهم بعد سقوط الدولة العباسية شمس الدين محمد بن عبيد الله المطلبي الكوفي الشاعر ، كان واعظ بغداد في أيام بني العباس ومن فحول شعرائها وهو شيخ شعراء الخضرمة بين الدولتين فإنه لم يكن يجرؤ أن يقول في أيام بني العباس ما قاله من التغزل بمملوك الصاحب علاء الدين الجويني ناصر الدين خطلو شاه وبترد من الغلمان ، قال في خطلو شاه في أيام شبابه :

آدِ وَلَا أَعْدُلْ إِنْ قَلْتَ آهَ قَدْ قَتَلْتَنِي مَقْلَتَا خَطْلُشَاهِ
فَعَارِضَاهُ وَائْثَرُهَا قِصَّتِي لَهُ وَمَا قَدْ فَعَلَا عَارِضَاهُ
لَمْ يَفْتَحِرْ مِنْ لَا رَأَى سَمْنَهُ وَلَا سَبِيَّ يَأْقُومُ مِنْ لَا مَبَادِ
خَاطَرْتُ بِالرَّوْحِ لِذِكْرِي لَهُ غَايَةُ مَا فِي الْبَابِ « دَقُوا قَفَاهُ »

وناصر الدين خطلع شاه هذا صار والياً بعد ذلك على العراق وبني رباطين بالبصرة والمدائن ومدرسة بالمؤمن جنوب واسط ثم قتل ودفن برباطه بالمدائن ، فبلغت الأبيات علاء الدين الجويني فكتب إليه « حرمة الشيب والآداب تمنعنا عن غاية ما في الباب وقد رسمنا لمملوكك خطلشاه أن يأتي إليك كل شهر كرتين ^(١) » . فأحججه بذلك .

وكتب شمس الدين الكوفي هذا على يد غلامه إلى أحد الأعيان :

إِنِّي جَعَلْتُ رَسُولِي مِنْ كَلَفْتِ بِهِ وَقَدْ كَتَبْتُ بِمَا أَلْقَى مِنْ الْوَسَبِ
فَدَعَ كِتَابِي وَسَلَ عَنِّي لَوَاحِظَهُ « قَالَسِيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءِ مَنْ الْكَتَبِ » ^(٢)

ومن تأثر بشعره بهذه الحرية نثر الدين أبو المظفر محمد بن الأشرف على العاوي الحسيني قال :
وقد دخل تبريز فرأى فيها من رأى :

حَلَّ تَبْرِيزَ شَادَن سَلَبَ الرُّوحَ وَالْبَدَنَ
وَبَسَاجِي الْحَاظِلِهِ صَدَّ عَنْ مَقْلَتِي الْوَسَنَ

أَنَا مِنْ قَرطٍ حُبِّهِ ذُو غَرَامٍ وَذُو شَجْنِ
عَجْمِي إِنْ قُلْتُ « مِنْ » هَمَّتْ فِيهِ يَقُولُ « مِنْ »^(١)

وقد تقدم ذكر هذا الشريف الشاعر في الكلام على شعر المناسبات فهو صاحب الأبيات الميمية في ابن الخوام .

وفي ديوان صفى الدين الحلي من الصرح بالخلاعة والسفاهة والتصريح بالفسق ما لا يحتاج إلى استشهاد . وكان هذا الضرب من الأدب النلاهي الفاجر مع كونه معروفاً منذ أيام أبي نواس ومن لف لفه ، وحذا حذوه ، نادراً في أواخر أيام الدولة العباسية ، فإن الخلفاء العباسيين وأرباب دولتهم كانوا ينكرون مثل هذا الأدب أشد الإنكار فلم يكن أكثر الفزل يتعمدى الأوصاف الطبيعية لكل جميل ، وما قيل بالتذكير فأكثره أريد به التأنيت ، وللارادة أمارات . ونظم عامر بن عامر البصري الصوفي الحكيم تأنيته في وحدة الوجود وفنون التصوف الأخرى وعدة أبياتها « ٥٠٦ » وجعلها اثني عشر نورا وقفاها بلمعة من أحواله^(٢) ، ولم تكن هذه التائبة مما يحتمله عصر بني العباس لما فيها من الأمور البانية لمذهب الجمهور وعقائده وقد تمّ نظم هذه القصيدة بسواس من بلاد الروم أي الاناطول لأن ناظمها هاجر من العراق بعد أن ادعى أحد الرقعاء أنه عيسى بن مريم - ع - فصدقه صاحب التائبة هذا ، ولما أخذ وأحرق سنة « ٦٦٩ » رثاه عامر البصري هذا بأبيات ، فلعل ملابسته لتلك الرقعة كانت السبب في هجرته من العراق ، ولكنه كان عراقياً على كل حال وقضى ثلثي عمره في العراق .

وقد أساء جماعة من الأدباء استمتاعهم بالحرية الأدبية ومنهم ابن الخشكري النعماني الشاعر بلغ علاء الدين الجربني عنه أقوال تُنافي الشرع وتعرب عن زندقته كاعتقاده فضل شعره على القرآن الكريم ، وفي سنة « ٦٦٦ » انحدر علاء الدين من بغداد إلى واسط فلما بلغ النعمانية حضر عنده ابن الخشكري هذا فأنشده قصيدة يمدحه بها ، وفي أثناء انشاده أذن المؤذن فأنصت له علاء الدين واستنصت ابن الخشكري فقال لعلاء الدين « يا مولانا اسمع شيئاً جديداً وأعرض

(١) تلخيص معجم الألقاب ، مجلد ٤ ص ٢٦٥ .

(٢) شعرها الممدد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٩ بعناية الشيخ عبد القادر المغربي .

عن شيء له ستين » . فثبت عند علماء الدين ما قيل فيه وثأكدت عنده زندقته فأمر بقتله
 قتل^(١) . والانسان يمكنه أن يكون كما يشاء في الديانة ولكنه لا يجوز له البتة أن يظن في دين
 غيره بهذا النحو ولا أن يدعو إلى التهاون به والازدراء له .

وكان أبوه مزيد الحشكري من فحول شعراء العراق وكان جريشاً على الهجو . وحال هذا
 الحشكري المقتول على الزندقة تذكرنا قول بشار بن برد وقد سمع جارية تغني بشعره فطرب : « هذا
 والله أحسن من سورة الحشر »^(٢) .

ومن آثار تلك الحرية الأدبية في التأليف « التاريخ الفخري » . وتواريخ ابن الفوطي
 وكشف الغمة في معرفة الأئمة ليهاء الدين علي بن عيسى السكودي الاريلي ، فلو كان هؤلاء
 ألفوا كتبهم على عهد الدولة العباسية ما استطاعوا أن يحرروا أقلامهم هذا التحرير ولا أن
 يعربوا عن مرادهم هذا الاعراب ، ولو لا تلك الحرية أيضاً ما قدر صفى الدين الحلي أن يناقض
 قصيدة ابن المعتز التي ادعى فيها لحده العباس بن عبدالمطلب -رض- ورائة النبي -عليه السلام-
 وقال فيها قال يخاطب العلويين :

ونحن ورثا ثياب النبي	فكم تجذبون بأهدابها !؟
لكم رحمٌ يا بني بنته	ولكن بنو العم أولى بها
قتلنا أمية في دارها	ونحن أحقُّ بأسلابها

فقال صفى الدين يناقضه :

ألا قل لشعر عبيد الآله	وطاغى قريش وكذابها
وباغي العباد وباغي العناد	وهاجي الكرام ومقتابها
أأنت تُفاخر آل النبي	وتجدها فضل أحسابها
بكُم باهل المصطفى أم بهم	فردَّ العداة بأوصابها ؟

(١) الحوادث « ص ٣٥٩ » والبداية والنهاية « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس الرقم ١٥١٦
 الورقة ١٠٥ » والكتاب مطبوع طبعة رديئة كثيرة التصحيف . وعقد الجمان للعيني « فيها أيضاً الرقم ١٥٤٣
 الورقة ١٩٨ » .

(٢) الأغاني « ج ٣ ص ٢١١ » من طبعة دار الكتب المصرية .

وعندك لا تورث الأنبياء فكيف حظيم بأثوابها؟^(١)

ولم تكن مناقضة صفي الدين علي شيء من الفتوة لأن حريته كانت رعتاء سادرة تحب أن تنتقم لنفسها انتقاماً جافياً مع أن قرع الحجة بالحجة أنخم للنخيم .

٦ — والعامل السادس هو الفناء ، وكان في عهد المستعصم بالله مزدهراً متوقفاً إليه مقبلاً عليه لاستمثار هذا الخليفة به وولوعه به ، فاطرد تياره في الدولة الإلخانية ونبع فيه مغنون مهرة وموسيقيون فوقة وشاع غابة الشيوخ ، والظاهر أن النول استطابوا الفناء والموسيقى العراقيين ، واقتبسوا منها كما اقتبسوا من غناء الفرس وموسيقاهم ، وكذلك فعل العراقيون بالفناء العنولي ولا تزال آثار الافتباس واضحة في المقامات العراقية ، ومن البداهة أن الفناء يعتمد على الشعر فلهذا كان الفناء من أقوى أسباب الرغبة في النظم والاجادة فيه ، ولقد رأى ابن بطوطة في هذا العصر بالصين جماعة يغنون بالشعر العربي^(٢) ، ثم إن القسا أن أبا سعيد بهادر خان آخر ملوك الدولة الإلخانية كان يتغني ولكن بالشعر الفارسي لأنه درس الموسيقى على كمال الدين التبريزي مخترع اللحن المعروف بالبشروف أي الشرف^(٣) ، ونشأت في هذا العصر بالعراق طبقة عاجلت الفناء والأدب والموسيقى معاً . ومنهم من أضاف إلى هذه الفنون الخط .

ونذكر منهم شيخهم وأقدمهم صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر الأرموي مؤلف رسالة الأذوار في الموسيقى وغيرها من الكتب ، وجمال الدين ياقوتاً المستعصمي الشاعر الخطاط الموسيقار ذا الخط المنسوب الفائق ، ومؤلف رسالة الحكاء النفيسة . والغني التوثي نسبة إلى محلة التوثة بالجانب الغربي من بغداد قرب تربة الشيخ الجنيد الصوفي ، اشتهر من غنائه السيكا :

عليلُ الشوق فيك متى يصحُّ وسكران بحبك كيف يصحو ؟
وأعجب ما يكون له شفاء فؤاد من لحاظك فيه جرح
وبين القلب والسُّوان حرب وبين الجفن والعبرات صلح

(١) ديوان الصفي ص ٥٢-٣ . (٢) رحلة ابن بطوطة « ج ٢ ص ١٦٧ » .

(٣) مسالك الأبحار في ممالك الأمصار ، نسخة باريس « الرقم ٨٧٠ الورقة ١٦٧ » .

مَرَحَتْ بِجَبْكَم يَا صَاحِ جَهْلًا وَكَمْ جَلَبَ السَّقَامَ عَلَيَّ مَرَحٌ^(١) ؟

ومنهم زين الدين بن الدهقان الوصلي ثم البغدادي الذي ذكرناه في شعر الناسبات . وكان ماهراً في الشعر والموسيقى والأدب عامة ، وله مؤلف في الموسيقى ، وكان شعره سائراً يتغنى به هو وغيره . ومنهم شمس الدين أحمد بن يحيى بن محمد بن شهاب الدين عمر البكري السهروردي من ذرية الشيخ الجليل الزاهد سفير الخلافة العباسية عمر البكري السهروردي دفن شرق بغداد ، بلغ في الموسيقى الغاية القصوى ، وتلقف الناس تأليفه فيها تلقفاً شديداً في الشرق والغرب ، واشتهر خطه بالمرق وخراسان وفارس وبلاد الروم ، إلا أن شعره لم يكن بذاك . ومنهم نظام الدين يحيى بن عبد الرحمن الجعفري البغدادي من ذرية جعفر بن أبي طالب الطيار ، كان أدبياً منشئاً وخطاطاً وموسيقاراً ، وقد عده شمس الدين الذهبي الدمشقي المؤرخ المشهور من شيوخه في المعجم المختص ، وكان بارعاً أيضاً في تشجير الأنساب ، وشجّر في العلوم على اختلاف أنواعها فكان نابضة عصره . وكان يكتب الكتب العربية في ديوان الدولة الأيلخانية . قال ابن فضل الله العمري في ذكره : لقد كانت تجي ، بخطه الكتب المليحة البليغة بالخط المليح والألفاظ الفصيحة السهلة التناول القريبة المأخذ ، على خاطري منها [قوله] في كتاب كبير عن أبي سعيد بهادرخان إلى سلطاننا محمد الناصر في معنى الحاج العراقي وأن توجههم من العراق إلى الحجاز أقرب إليهم من توجههم من الشام إلى الحجاز ، قال فيه : « والقلوب بالاحسان تملك ، وأقرب الطرق إلى الله أولى بأن يسلك » .

قال : « وهاتان الكلمتان تقومان في المعنى المقصود تمام كتاب مطول مع خفة موقعها وتمسكها في موضعها . ولند كان يقع في كتبه في هذه النسبة كلُّ حسن »^(٢) .

وقال الصفدي : « إذا رأيت خطه في المهارق ، أنساك سحر الأحداق وزهر الحدائق »^(٣) .

وآخر من تذكر منهم يحيى الغريب الواسطي المعروف بالمشب^(٤) .

(١) مسالك الأبصار « الورقة ١٦٠ » ، وديوان سبط ابن التعاويني « ص ١٠٢ » .

(٢) مسالك الأبصار « الورقة ١٨٥ » .

(٣) ذيل تاريخ الإسلام لابن قاضي شبة « ٢٦/١٦ » من أصول التاريخ والأدب .

(٤) مسالك الأبصار أيضاً .

٧ - والعامل السابع هو الحلة ، فهذه المدينة المباركة في الأدب العربي التي اشترك في تأسيسها بنو أسد وحلفاؤهم من الأكراد المستعربين من قبيلة (جاوان) كانت قد احتضنت العلم والأدب والشعر منذ أسست الى عصرنا هذا ، لم تغيرها عن ذلك غير الدهر لتلبس الصبغة العربية عليها . وقد نبغ فيها أدباء وشعراء طبقت شهرتهم الآفاق ، منهم راجح الحلي شاعر بني أيوب أيام الحروب الصليبية ، وأشهرهم في العصر المملوكي صفي الدين الحلي ، وصاحبه مذهب الدين محمود بن يحيى الشيباني ، وصفي الدين محمد بن الحسن بن أبي الرضا الملوحي ، وعلاء الدين أبو الحسن علي ابن الحسين المعروف بابن الشهيق ، وشمس الدين محفوظ بن وشاح الحلي ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن علي الشيباني .

وفذلكة القول أن الحلة كانت معقلاً من معالق الأدب العربي في أيام المماليك ، ومرجعاً من مرابعه في أيام السلم ، وما من شك في أن لسلامتها من سيوف النول الماحقة أثراً حسناً في اتصال سيرتها الأدبية واستمرارها على أحسن أحوالها ، فبغداد كانت قد فقدت عشرات من أدبائها وشعرائها في الواقعة المولوية المشؤومة ، منهم من قتلوا غدرًا ، ومنهم من قتلوا صبرًا ، منهم : يحيى الصرصري الضرير الذي أكثر من مدح رسول الله - ص - في شعره حتى عرف بشاعر رسول الله ، وديوان شعره مشهور في عداد المخطوطات الشعرية العراقية النفيسة . ومنهم موفق الدين عبد القاهر ابن الفوطي البغدادي الحنبلي صاحب القصائد المرموقة في وصف الحالة الاجتماعية والحالة السياسية اللتين صارت اليها الدولة العباسية قبل سقوطها ، واتخذ في الحقيقة الدولة العباسية ، ونعى نفسه معها بقصيدة طويلة ، منها :

واضية الملك والدين الحنيف وما	تلقاه من حادثات الدهر ببغداد
أبن النية متي كي تساورني ؟	فلمنية إصدار وإيراد
من قبل واقعة شنعاء مظلمة	يشيب من هولها طفل وأكباد ^(١)

هذه هي العوامل السبعة التي عملت على بقاء الأدب العربي العراقي في معظم قوته ، وإن تأثرت مظاهره وتطورت أغراضه .

خصائص الأدب العراقي في العصر المغولي

أشرنا فيما سبق أن قدمناه من هذا البحث إلى أن الأدب العراقي العربي استمر في أول العصر المغولي من حيث القوة متشاقلاً على ضعف أخقه به فقدائه عنصر العروبة في الدولة الحاكمة وقلة الأدباء الناشئة عن تلف فريق منهم تحت سيوف المغول، وذكرنا من أحوال مخضرمي الدولتين من الشعراء ما يؤذن بأنهم كانوا قوام ذلك الأطراد في الشعر الجزل. أما النثر فقد أصابه ضعف شديد في الجوهر والمظهر، لأن صناعته لفظية، وليس لها مما للشعر من القوة العاطفية والشيوع والهوى المجتمعي، فالدولة الأيلخانية ما استعملت اللغة العربية إلا في أمور العراق وشي من المراسلات مع الأقطار الإسلامية كعصر والشام، فكان النثر مستعملاً في أهون أساليبه وأقربها إلى لغة العامة، وقد حلت اللغة الفارسية واللغة المغولية مكان اللغة العربية في أكثر بلاد الشرق الأوسط. ولافتراق الشعر والنثر في هذا العصر، ينبغي لنا أن نذكر خصائص كل على حدة، ونبدأ بالشعر، فنضع الذي أصابه لم يظهر عليه إلا في أواخر القرن السابع للهجرة، ونستطيع أن نحدد حركة استمرار قوته القوية بكتاب «لطائف المعاني في شعراء زمان» للعلامة المفتي الأديب المؤرخ تاج الدين ابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ، وشيخ الشعراء في هذه البرهة كما قدمنا هو شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي، وقد أشرنا إلى ذلك، وهو شاعر عباسي النشأة وقد عرضنا لشيء من أحواله قبلاً. فإذ تجاوزنا تلك المدة لاحت لنا خصائص الشعر في العصر المغولي، وهي الميل الشديد إلى نظم معجزات النبي - ص - ومناقب الخلفاء والأئمة، والاقبال الثام على النظم التعليمي ومنه البديعيات والصوفيات والوعظيات واللغزيات والزهديات، وقيام سوق الأدب المتحلل من الأدب، وطغيان النظم في الحب الحرام ووصف الغلام، واستتبع ذلك شعراً هزلياً كثير المجون، ثم الولوع بنظم الطرديات الطائرية وهي وصف البرزات إلى صيد الطير الجليل، ويعرف أيضاً بالواجب الذي كان الخليفة الناصر لدين الله صنفه أربعة عشر صنفاً، وألف فيها العالم الفقيه الشافعي محمد بن إسماعيل بن ودعة المعروف بابن البقال معيد المدرسة النظامية ببغداد كتاباً سماه «المقترح في المصطلح» لضبط أحكام الرعي

ومسائله وقواعده وفتاواه على وفق المباحث الفقهية^(١) ، ثم ألفت فيه وفي فتاواه عدة كتب .
ومن خصائص الشعر في هذا العصر أيضاً العناية بالفنون الصناعية كالنوشيح والتسميط
والتخميس فضلاً عن الفنون النثرية الصناعية التي كانت مقامات الجزري طليعة لها ، ومنها الميل الى
الافتنان في النظم باللغة العامية ، لأن اللدكة الشعرية في العراقيين لما أعوزها المظهر حافظت على
الجوهر الذي هو المعاني . والذي ذكرته من الخصائص لا يعني وقوف النظم عن معالجة الموضوعات
الأخرى ، بل قلة النظم فيها ، حتى إن صفي الدين الحلي ذكر في مقدمة ديوانه الأسباب التي بعثته
على مخالفة ما شبَّ عليه واعتاده من الاغراض الشعرية وحملته على مدح ملوك ماردين الأرتقيين .
وصفي الدين نفسه أول من نظم البديعية النبوية وضمنها معجزات رسول الله - ص - وفرائد
من سيرته الكريمة ، أما نظم البديعية باطلاً فقد كان مسبوقة اليه ، وافق في نظم التواشيح
وفنون لفظية أخرى ، ذكر جملة منها في ديوانه .

ومن شعراء المناقب بهاء الدين علي بن عيسى الكردي الإربلي وقد قدمنا ذكره في الإهداء
الى حرية التأليف ، وفي كتابه « كشف النعمة في معرفة الأئمة » عدة قصائد مدح بها أئمة الإمامية
الاثني عشر ، وإذا كان نظم المناقب في أصله يعتمد على حشو الشعر بالتلويح والتعريض والتضمين
للأحاديث والأخبار لم يسلم من البرودة ولا تفادى من الإبهام ، وكذلك القول في الرثاء فإنه
لما توفي العلامة ابن تيمية مثلاً وذلك سنة « ٧٢٨ » بدمشق رثاه أحد العراقيين فيمن رثوه ،
وهو تقي الدين الدقوقي (أصله من بلدة دقوق أي طاووق الحالية) بمئة وثلاثة وعشرين بيتاً ليس
فيها أثر للغن الشعرية أرائع مع صدق الشعور وصحة النظم والأوزان . ومن شعراء النظم التعليمي
عاصر بن عامر البصري صاحب التائية الصوفية ، وصفي الدين الحلي فإن بديعته النبوية تمدد
أيضاً من الشعر التعليمي الأصيل . ومن شعراء الوعظيات والزهديات شمس الدين محمد بن أبي
القاسم النحجي الواسطي المتوفى في أواسط القرن الثامن للميلاد ، وهو القائل من قصيدة :
بدا البرق من حُزوى فيُهاج حنينه وهبَّتْ صبا نجد فزاد أُنينهُ

(١) يراجع فهرست دار المکتب الوطنية بباريس « ٤٦٢٩ » ورقة ٤ .

(٢) مقفلة الدرية « ص ٣٩٧ ، ٤٠١ » .

وغنى له الحادي بأيام حاجر ففاضت بأمطار الدموع جفونه
ومن أخرى :

هنيئاً لمن أمسى وأنت حبيبه ولو أن نيران الغرام تُذِيبه
وطوبى لقلب أنت ساكن سره ولو بان عنه إلهه وقريبه
ومن ثالثة :

أنوح اذا الحادي بذكركم غنى وأبكى اذا ما البرق من نحوكم عنا
بكم ولكي لا بالعذيب ولا النقا وأنتم مرادي لا سعاد ولا لبني

وهو من المجيدين في الموشحات ، ولكن الضعف كان قد أصاب الشعر في عصره . وكان معاصراً لصفي الدين الحلي ، ومن شعراء الشعر المتحلل من الأدب القصص على الهزل والمجون بقي الدين علي بن عبد العزيز المغربي الأصل ، ثم البغدادي الدار ، صاحب القصيدة الدبديبة ، وكان أيضاً من المهجين بالنظم في اللغة العامية ، وله قصائد في الرجل والكان وكان وغيرها^(١) . وكان ديوانه مشهوراً بالعراق . ولما قدم بغداد قاضي القضاة نجم الدين الطشتي سنة « ٧١١ » ، طلب الديوان واستنسخه^(٢) ، فان كان هذا شأن قاضي القضاة في الشعر فما ظنك بغيره من أهل الأدب ؟ وفي بغداد ماتن أحد شعرائها سنة « ٧٣٤ » الشيخ زركوب الشاعر الفارسي ومدح بغداد^(٣) .

وأما الطرديات الطائرية المنظومة في صيد الطير الجليل ووصفه ، فأمثلتها في ديوان صفي الدين الحلي^(٤) ، وهي أراجيز رائعة فيها افتتان بآين ، وإجادة مبينة . والذي سبق إلى هذا الفن من النظم هو الراي الكبير الشاطر الشهير عمر بن السفت من أهل القرن السادس للهجرة (والسفت متقاس الصانغ) ، وكان رجلاً عامياً إلا أن الإبداع مركز في الطبائع ، قال في مسمطته الطردية :

هيج لي البرق على الخيف أضاً طيب ليالينا على وادي القضا
مع طيب عيش قد تولى ومضى آه له لما تولى وانقضى
بل آه وآهفي على تلك الدول

(١) فوات الوفيات « ٥٧/٢ » . (٢) تلخيص معجم الألقاب « ٣٤٣/٤ » .

(٣) حافظ الشبازي لابراهيم بن أمين الشواربي « ص ٢١ » .

(٤) ديوان الصفي « ص ٦٥ ، ١٤٢ ، ١٥٣ » .

أَتَمَّهم في أفق السما وأنجدا وقته الرعد به ثم حدا
فصحت مما حل بي : واكددا يا سعد إن كنت زميلاً مسعدا

قَب بالحمى دون الكشييين وسل

وانشد فؤاداً ظل في ذاك الحمى لا مما البارق في أفق السما
وقاض دمعي فوق خديّ دما أهلاً بطيف حل بالخيف فما
أدري وما يدري فؤادي ما فعل

إن لتتني في حبهام فلا تلم إذا تأوّهت لعيش لم يدُم
كأنه قد كان في طيف الحلم فيا زميلي لوح الصبح فقم
نتهب الفرصة من قبل الأجل^(١)

ومن هذا التشبيب يفضي الى البروز لصيد الطير ، ويذكر أنواع الجليل منها ، ويتغزل بطائر
طائر ثم يذكر مصرعه . وهذا نظم مستملح مستجاد مستحسن الصياغة من ابن منقاش
الصائغ (ابن السفت) ، وقد قلده كثير من شعراء العصر المغولي .

وقبل أن أخلص الى الشعر العامي أود أن أذكر أن جماعة من شعراء هذا العصر قد ذكروهم
المؤرخ المحدث الكاتب ابن الفوطي الحنبلي البغدادى في كتابه « نظم الدرر الناصعة في شعراء
انئة السابعة » وهو مدخل لكتاب ابن الساعي « لطائف المعاني في شعراء زمانى » الذي ألعنا اليه ،
وذكرهم ابن الفوطي أيضاً ومن بعدهم في كتابه تلخيص معجم الألقاب كما تبينت من الجزء الرابع
المصور المخزون في دار كتب المتحفة العراقية ، ومن الجزء الخامس المطبوع بلاهور في باكستان .
وقد ذكر في تلخيص معجم الألقاب مثلاً أن ديوان نغر الدين أبى المظفر محمد بن الأشرف
العلوي الذي ذكرت له مقطوعتين من قبل كان ينيف على عشر مجلدات^(٢) .

وأفضي الى الشعر العامي فأقول : إنه شاع في العصر المغولي وبلغ غايته فيه ، وعالج فيه قول الشعراء

(١) كتاب الفتوى في البندق مع المقترح في المصطلح المذكور « أصول التأريخ والأدب » ٢٤/٩ .

(٢) تلخيص معجم الألقاب » ٢٦٥/٢ .

شمس الدين محمد الكوفي وهو من شعراء الحضرة ، وتوفي الدين علي المغربي وقد أشرت إلى ذلك ، وشمس الدين الواسطي ، وصفي الدين الحلي . ولاهتمام الناس وأقبالهم عليه واستفحاله ألف فيه الصفي الحلي كتابه « العاقل الحالي والرخيص الغالي » ضمنه الرجل والموالي والسكان وكان والقوما ^(١) . ولذلك قال في مقدمة ديوانه : « وقد أعريت هذا الكتاب ، عن كل ما عري من الإعراب ، من الفنون الأربعة التي لحسها إعرابها ، وخطأ نحوها صوابها ، وجعلت جزءاً بمفرده ، خارجاً عما نحن بصدد » ^(٢) . وهذه الفنون الشعرية العامة كانت معروفة في العراق قبل العصر المغولي ، فمنها القديم ومنها المتأخر الزمن ، إلا أنها من اختراع العراقيين وحدهم . ولما حل العصر المغولي لم يأنف كبار الشعراء من النظم فيها ، ولولا لغتها العامة لَمْ لها أن تكون حليفة الإبداع ومتعة الاستماع ، ومن شهادات كبار الأدباء للشعر العامي العراقي ما قاله ضياء الدين نصرالله بن الأثير الكاتب الشهير في فن « القوما » من الشعر العامي ، قال : « بلغني أن قوماً ببغداد من رعا العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب ، وسمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة ومعاني غريبة وإن لم تكن الالفاظ التي صيغت به صنعة ^(٣) » . وقال أديب كبير آخر في الكان وكان : « ومن خالط أهل بغداد وعلماءها عرف فضلهم ولطفهم ، ومن تأمل لطافة العوام بها في مجونهم وحديثهم وإشاراتهم التي لا يفهمها أكثر علماء غيرها من البلاد - حتى إن فيهم من يقول الشعر المسمى كان وكان فيأتي بعمان لا يقدر عليها فحول الشعراء - يتبين له فضلهم ولطافة أخلاقهم » ^(٤) .

مصطفى جواد

(٢) ديوان الصفي « ص ٤ » .

(٤) مختصر مناقب بغداد « ص ٣١ ، ٢ » .

(١) المستطرف « ٢ / ١٩٠ » .

(٣) التل السائر « ص ٣٠ » .